

## العلمانية

يروى تشرشل في مذكراته ، أنه اجتمع مع روزفلت رئيس الولايات المتحدة ولتفينوف ، سفير الاتحاد السوفيتي في واشنطن ليضعوا إعلان الأمم المتحدة الذي نشر في أول يناير سنة ١٩٤٢ ، فاعترض السفير السوفيتي على عبارة « الحرية الدينية » التي وردت في المشروع ، فانبرى له روزفلت وألقى محاضرة طويلة : عن الموت والنشور ، والبعث والحساب ، والجنة والنار ، فأغرقه في بحر طام من العلم اللاهوتي ، فلم ير السفير بدءاً من أن يسحب معارضته نحاة بنفسه من موجة أخرى من التلقين الديني .

ويقول تشرشل إنه مازح روزفلت قائلاً له : لقد كنت مشفقاً عليك من نتائج انتخابات الدورة الثانية لرياستك ، أما الآن فلا خوف عليك ، إذ لو لم يعد الأمريكيون انتخابك ، فسيكون البريطانيون سعداء إذا قبلت أن تعين كبيراً للأساقفة في بلادهم ، فبلاغتك في الوعظ ، وعلمك بالدين يؤهلانك لذلك .

وهذه القصة الصغيرة على طرفتها ، تتضمن من المعاني ما يحسن سوقه للذين يؤمنون « بعلمانية الدولة » . فماذا تكون هذه العلمانية أولاً ؟

والعلمانية اصطلاح حديث يقصد به ما ليس دينياً أو كهنوتياً ، ولعله مشتق من لفظ « العالم » ، وترجع أصول العلمانية إلى ردود الفعل لثورة مارتن لوثر في سنة ١٥٢٠ على البابا وانتقاده العنيف إياه لبيع صكوك الغفران للعصاة والحاطئين من المسيحيين مقابل مال كثير يدفع للبابا ، فيضمن لهم دخول الجنة ، واسخط لوثر على عبادة القديسين ودعوته إلى العمل بالكتاب المقدس وحده ، ولم تلق هذه الدعوة أول

الأمر استجابة ذات شأن ؛ ولكن لما أخذ أتباع لوثر يكثرون سلطت عليهم الكنيسة والأمراء الذين انحازوا لها ما يصفه جوستاف لوبون بقوله :  
 « أيد الشيوخ والنساء والأطفال ؛ وصار رئيس برلمان « إكس » البارون  
 « دويين » مثالا يحتذى لقتله في عشرة أيام ثلاثة آلاف شخص وتدمير  
 ثلاث مدن ، واثنين وعشرين قرية . بعد هذه المجازر انتهى الرأي  
 السياسي إلى تجريد الدولة من كل نشاط ديني ؛ وإبعاد الخدمات الدينية  
 عن نطاق إشرافها وتوجيهها ، وعدم تحميل ميزانية الدولة شيئاً من نفقات  
 الكنائس والأديرة ، وتحريم التعليم الديني في المدارس والمعاهد الحكومية .  
 فهل كفت الدول - لاسيما في غرب أوروبا - حقاً عن النشاط  
 الديني ، وغسلت يديها منه . يهمننا في الإجابة عن هذا السؤال الجانب  
 الخارجي من نشاط الدول « العلمانية » فالثابت من تاريخ الاستعمار  
 الأوربي الغربي في آسيا وإفريقيا أن هذه الدول اتخذت من الدين وسيلة  
 لتسوية استعمارها ولنهب أرزاق أهل المستعمرات ، وحرمانهم من  
 ثقافتهم الوطنية ، ومن رفض نير الاستعمار عن أعناقهم .

وإذا أردنا أن نضرب الأمثلة على زيف هذه « العلمانية » وكذبها ،  
 تراحمت بين أيدينا الأمثلة ، حتى لاندري أيها نأخذ وأيها ندع ، ولكن  
 أحسب أن ما جرى في الجزائر - فضلاً عن اتصاله بنا ، لوقوعها في  
 محيطنا العربي والإسلامي نموذج صارخ لعلمانية الغرب ، وسننقل المثل  
 التالي من كتاب الكاتبين الفرنسيين كوليت وفرانسيس جانسون المعنون :  
 « الجزائر خارج القانون » قالوا :

« لعل العبث بالدين الإسلامي كان هو المجال المفضل لدى القائد  
 « روفيجو » ليعيث فيه فساداً واستهتاراً ، فقد وقف هذا القائد الفاجر  
 ونادى بين قومه بأنه يلزمه أجمل مسجد في مدينة الجزائر ليجعل منه  
 معبداً لإله المسيحيين ، وطلب من أعوانه إعداد ذلك في أقرب  
 وقت ممكن ، وأشار لهم إلى جامع القشاوة لأنه كما قال أجمل جوامع

الجزائر طرازاً . وحدد يوم ١٨ من ديسمبر سنة ١٨٣٢ لإنجاز هذا العمل .  
وفي الموعد المحدد تقدمت بطاريات الجيش تزحف إلى المسجد ، فإذا  
بداخله أربعة آلاف مسلم اعتصموا به خلف المتاريس ، فاندفعت  
نحوهم القوة العسكرية ودحرتهم بالسناكي . . . » ، ثم وضع في هذه  
الكاتدرائية منبراً كان يعرف في الجزائر بأنه « منبر الرسول » وهو آية في  
النقش العربي . وعلى هذا المنبر وقف الحاكم « موجو » يقول : إن آخر  
أيام الإسلام قد دنت ، وفي خلال عشرين عاماً لن يكون للجزائر  
إله غير المسيح .

وهو بطبيعة الحال غير المسيح الذي يؤمن به المسلمون ، كما أمرهم  
بذلك دينهم . ولا هو المسيح الناصري الذي قال للناس : أحبوا أعداءكم ،  
باركوا لأعينكم . . إلخ » ، ونحمد الله إذ أعفى الجزائر ديجول ، بلاده  
فرنسا ، موطن الثورة ، والإنسانية من هذه الوصمة الكاذبة . فلنر ، في  
الجانب الآخر . كيف حقق الإسلام كل ما عقده على « العلمانية » من  
آمال لم تتحقق لا في داخل الدول ولا خارجها .

أولاً - ليس في الإسلام هيئة ولا طبقة تحترف صناعة الدين ،  
أو تستأجر بشرح أحكامه ، فكل مسلم مدعو لقراءة الدين والتفقه فيه ،  
وله الحرية في أن يفهم ما يشاء ما دام يفهم لنفسه ، وله أن يستعين  
بمن هم أرسخ منه قديماً في اللغة ، وأقدر منه لثقافتهم وعلمهم ليأخذوا  
بيده ، فليست تلاوة القرآن حكراً لأحد ، ولا هي ممنوعة عن أحد ، بل  
إنها مستحبة كلما تيسرت للإنسان . والإنسان يصلي وحده بلا رقيب  
ولا موجه ، وإذا اجتمع المسلمون ، تقدم أحدهم فأمهم ما دام يعرف  
أصول الصلاة ، ولو كان أشعث أغبر لا يؤبه له .

وفي هذا المعنى يقول الشيخ شلتوت : قد اتصلت بالقرآن ، بعد  
أن التحق الرسول برية ، أفهام العلماء والأئمة فيما لم يكن من آياته نص  
في معنى واحد ، وكثرت الآراء والمذاهب في النظريات والعمليات ،

لا على أنها دين يلزم وإنما هي آراء وأفهام . .

ثانياً - عبادة المسلمين وصلاتهم جائزة في كل شبر من كل أرض ،  
فالله تعالى قال : ( فأينما تولوا فثم وجه الله ) ، وقال الرسول عليه أفضل  
السلام : . . وجعلت لي الأرض مسجداً وظهوراً . .

ثالثاً - ونبي المسلمين ورسول الله إليهم بشر مثلهم ، يأكل  
الطعام ، ويمشي في الأسواق ، وكان له كل نشاط الآدميين ،  
فتزوج وأنجب ، وصام وأقطر وحارب وسالم وعاهد ، وعرف اليم والثكل ،  
مات له زوجات وبنات وبنون ، وأكد القرآن والحديث بشريته ،  
ووصفه القرآن بأنه عبد الله ، وقال عن نفسه « إنه عبد يأكل كما يأكل  
العبد ، ويجلس كما يجلس العبد » في القرآن : ( سبحان ربي هل كنت  
إلا بشراً رسولاً ) ، وفيه ( قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ) ،  
وفي الحديث : « لست ملكاً ولا جباراً ، إنما أنا ابن امرأة كانت  
تأكل القديد في مكة » .

والرسل جميعاً - عند الإسلام - ليسوا إلا مبلغين لرسالات الله  
ووظيفتهم الإرشاد والتعليم عن طريق الوحي ، وفي علماء المسلمين  
من يقول إن الرسول : صلى الله عليه وسلم ، يجوز عليه من الخطأ  
والصواب - عدا ما خصه الله به - ما يجوز على أي فرد من البشر .  
رابعاً - الأصل في الأشياء الإباحة ، ولا تحريم إلا بأمر الله ،  
في نص من القرآن أو نص من الحديث قطعي الورد ، فالإباحة والتحريم  
من حقوق الله وحده ، ولا يشاركه في ذلك شريك من رسول أو خليفة ،  
أو هيئة ، أو جماعة أو طبقة أو فئة . وبالتالي لا يوجد من يغفر الذنوب إلا الله ،  
وكل مسئول عن عمله لا تنفع أحداً عند الله قرابة حتى للرسول الكريم ،  
فقد قال عليه السلام : « يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم  
من الله شيئاً » وقال : « لو سرق فاطمة بنته - رضي الله عنها - لقطعت  
يدها » .

وأخيراً يساوى الإسلام بين رسل الله جميعاً ، وأديانهم ( آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله ) .

وقد أمر الإسلام المسلمين أن يعاشروا أهل الكتاب بالحسنى ، وأن يأكلوا طعامهم ، ويتزوجوا نساءهم ، كما أمرهم : ( ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ) .

وقد نشأ من كل ذلك جو من حرية الرأي والإخاء الإنساني ، والتعاون الأخوي ، أتاح للمسلمين وإخوانهم من أهل الكتاب مسيحيين ويهود ، أن يتعاونوا في إنشاء حضارة إنسانية ، بتى التسامح وكراهية القسر والعنف ، طابعها المميز حتى في أدوار انحلالها ، وقد روى مصطفى كامل في كتابه الشهير « المسألة الشرقية » أنه لما فتحت القسطنطينية على يد محمد الفاتح السلطان التركي ، وانتخب المسيحيون الروم بطريكاً قال له السلطان محمد : « كن بطريكاً لليونان والله يحميك ، وفي كل الأحوال والظروف اعتمد على مساعدتى وتمتع بكل الامتيازات التى كانت لأسلافك من قبل » .

فهل علمانية كائنة ما كانت قادرة على أن تحقق هذا أو شيئاً قريباً منه ؟